

النظريات السوسولوجية الحديثة

أولاً- النظرية التفاعلية

يرتبط أصل مصطلح التفاعلية الرمزية Symbolic Interactionism باسم "هربرت بلومر Herbert Bloumer" الذي وصف هذا المصطلح بقوله: "إنه تعبير جديد غير متداول إلى حد ما، قام بصياغته بطريقة ارتجالية في مقالة كتبت ضمن كتاب "الإنسان والمجتمع"، لقد انتشر المصطلح بطريقة ما، وهو الآن يحظى باستخدام عام". (رث والاس، ألسون وولف، 2011، ص321)

ويتكون مصطلح التفاعل الرمزي من شقين أساسيين هما: عملية التفاعل وهي الفعل الاجتماعي الموجه والشق الثاني: هو النظام الرمزي وهو أداة التفاعل، ويقابل ذلك عملية فهم الرمز وهذا يعتمد على عملية ذهنية مرهونة بنشاط العقل ومخزونه المعرفي من المعاني والتصورات والمعتقدات.

إن أول من أطلق مصطلح التفاعل الرمزي هو العالم "هربرت بلومر" وكان يعني به أن الفعل الاجتماعي الموجه للحصول على استجابة من آخرين يؤدي إلى عملية التفاعل وهذا يعتمد على الخاصية الرمزية للعقل ضمن إطار عملية التفاعل والاتصال، والمتفاعلون لا يتبعون وصفات اجتماعية ثقافية ثابتة إنما يؤولون معنى العقل والرمز ولهذا لا تعتبر العمليات الاجتماعية والعلاقات ونواتجها من بناءات اجتماعية ثقافية كأشياء ثابتة إنما عمليات دينامية متغيرة ومفتوحة.

وتتناول هذه النظرية إذن علاقات التفاعل بين الفرد والآخرين، فالأفراد أصحاب الثقافة الواحدة يشارك بعضهم البعض في المواقف الاجتماعية بسبب الظروف والعوامل المتشابهة التي أثرت عليهم في عمليات التطبيع الاجتماعي، وبفعل التأثير المتبادل بين الفرد والمجتمع فإن الضبط الاجتماعي ينشأ

كحاجة تملئها ضرورة التكامل والنهوض الاجتماعي لكافة الأفراد، وليست القواعد الأخلاقية هنا من صنع الإنسان الفرد، ولا ينبغي أن تكون منعزلة عن مجرى التفاعلات الاجتماعية في الواقع المحيط. (محمد حسن عمارة، 1999، ص289)

ومن ثم فإن التفاعلية الرمزية هي بصورة جوهرية منظور نفسي-اجتماعي، ومن القضايا الأولية التي يركز عليها هذا المنظور، الفرد الذي يمتلك ذاتا، والتفاعل بين الأفكار والعواطف الداخلية للشخص، وسلوكه الاجتماعي، إن معظم التحليل ضمن هذا المنظور ينصب على مستوى قصير المدى للعلاقات بين شخصانية، ويتم النظر إلى الأفراد على أنهم بناؤون نشطون لتصرفاتهم، حيث يفسرون ويقومون ويعرفون ويخططون فعلهم، أكثر من كونهم كائنات سلبية راضخة لقوى خارجية، كما أن التفاعلية الرمزية تشدد على العمليات التي يتخذ الفرد من خلالها قرارات ومنها بيني آراءه الخاصة. (رث والاس، ألسون وولف، 2011، ص322)

الجذور الفكرية للتفاعلية الرمزية: "ماكس فيبر" و"جورج زيمل"

إن المساهمين الرواد في المنظور التفاعلي الرمزي هم: "جورج زيمل" George Simmel و"روبرت بارك" Rebert Park و"وليام إسحاق توماس" William Isaac و"تشارلز هورتون كولي" Charles Horton Cooley و"جون ديوي" Jhon Dewey و"جورج هربرت ميد" George Herbert Mead، ولا بد من توثيق "ماكس فيبر"، لأنه ركز في تعريفه لعلم الاجتماع على أهمية الفهم التفسيري أو المعنى الذاتي. (رث والاس، ألسون وولف، 2011، ص323)

التفاعلية الرمزية وتحليل الأنساق الاجتماعية

تمثل هذه النظرية Symbolic Interactionism إحدى المحاور الأساسية التي تعتمد عليها النظرية النفسية الاجتماعية، في تحليل الأنساق الاجتماعية، وهي تبدأ بمستوى الوحدات الصغرى منطلقاً

منها لفهم الوحدات الكبرى، بمعنى أنها تبدأ بالأفراد وسلوكهم كمدخل لفهم النسق الاجتماعي. (فادية عمر الجولاني، بدون سنة، ص184)

وانطلاقاً من أفكار التفاعلية الرمزية يركز أنصار هذا المنظور على دراسة المدرسة باعتبارها تنظيمًا اجتماعيًا أو بيئة رمزية Symbolic Interactionism لعدد من الأفراد أو الأعضاء أو الجماعات التي تشكل بناءاتها الرسمية وغير الرسمية، كما تعتبر القواعد والعلاقات الاجتماعية جزءًا كبيرًا من عناصر تكوين هذه البيئة وتشكل أنماط السلوك والدور ورد الفعل وتوقعات الفاعلين على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم التعليمية، وخبراتهم وانتماءاتهم الطبقية والمهنية، وغيرها من المتغيرات الأخرى التي تسهم في فهم العمليات الداخلية والأنشطة المختلفة داخل البناءات المدرسية، فالمدرسة كتنظيم يكرس أنشطته من أجل التنشئة الاجتماعية والتربوية والأخلاقية، تمتلئ بالعديد من الوظائف أو المهام الرسمية Official Messages التي تسهم في إعداد التلاميذ وتأهيلهم لسلوكوا أدوارا مناسبة للتلاميذ، أو ما ينبغي أن يكون عليه هذا السلوك داخل المدرسة أو خارجها.

ولكن رد فعل التلاميذ وسلوكهم وأدوارهم داخل المدرسة تختلف حسب استجاباتهم وتفاعلهم تجاه هذه الرسائل أو المهام، كما يسعى البعض لأن يسلك الأساليب الرسمية لتنفيذ هذه المهام بينما نجد البعض يسعى لتبني الأساليب غير الرسمية، كما تتحقق هذه المهام من ناحية الإدارة المدرسية سواء عن طريق الاختيار والإقناع أو استخدام الوسائل الجبرية أو القهرية وما أكثر الوسائل العقابية واختلاف أنماطها داخل العديد من المدارس، وتحليل هذه المهام أو توقعات الدور أو السلوك في المدارس سوف يساعد كل من التلاميذ والمدرسين على فهم كل منها الآخر، وكيفية التأثير المباشر لكل فرد على الجماعات التي ينتمي إليها داخل المدرسة، كما يسهم في نفس الوقت على مساعدة التلاميذ على تحديد هويتهم الذاتية وطموحاتهم التعليمية والثقافية أو أهدافهم التربوية والعملية التي يسعون لتحقيقها خلال مراحلهم الدراسية،

كما يساعد المدرسين في تكوين اتجاهاتهم نحو التلاميذ وإشباع حاجاتهم المهنية في نفس الوقت، علاوة على ذلك يركز منظور التفاعل على معرفة كل من آراء أو وجهات نظر لمدرسين والتلاميذ تجاه المدرسة التي يعملون فيها باعتبارها التنظيم الأولي لهم خلال المرحلة العملية أو التعليمية. (عبد الله عبد الرحمن، 2001، ص ص 82-83)

كما تؤكد التفاعلية الرمزية بشكل واضح في تحليلها على الجوانب الرمزية للتفاعل، ولهذه النظرية أصولها الفكرية في أعمال كل من "جورج هيربرت ميد" و"هربرت بليمير" و"ارننج جوفمان" وغيرهم، فكل منهم مدخلاته الأساسية، وفرضياته التي يقيم عليها فهمه لعملية التفاعل في التنظيم الاجتماعي. (فادية عمر الجولاني، بدون سنة، ص 184)

ويوضح منظور التفاعل طبيعة اهتمامه بالمدرسة أو بالعملية التعليمية داخل المدارس مركزا على جميع مظاهر هذه العملية والأفراد أو الفئات المتفاعلة داخل الموقف المدرسي ونوعية الأدوار والسلوك أو الفعل الذي يقوم به كل فرد داخل التنظيم المدرسي، ورد الفعل الصادر عن الأفراد أو الفئات الأخرى التي توجد بالمدرسة سواء كانوا من التلاميذ أو الفئات العاملة من المدرسين أو المساعدين المعاونين لهم. (عبد الله عبد الرحمن، 2001، ص 80)

ويشير "شيبمان Shipman" إلى أن اهتمامات عالم الاجتماع والمتخصص في علم الاجتماع التربوية، لم يعد ينظر إلى المدرسة من الخارج فقط كما يفعل أنصار البنائية الوظيفية أو الصراع، بقدر ما بدء يهتم بدراسة الموقف الداخلي الذي يساعد على فهم وتفسير العمليات العقلية التي تمارس داخل المدارس وخلال الحياة اليومية المدرسية، هذا الموقف الذي لا يمكن تحليله من الخارج فقط دون الأخذ بالاعتبار وجهات نظر الفئات والجماعات التي تتكون منها المدرسة، كما يعد تغيير اهتمامات المتخصصين في هذا المجال خاصة بعد أن تفاقمت المشكلات الدراسية وصعوبة التنبؤ بنتائجها أو

التخطيط لحلها دون تكوين خلفية واقعية لطبيعة أنساق التفاعل، ومكونات الفهم للأدوار الوظيفية المتبادلة داخل المدرسة، وكيفية فهمها وتفسيرها خاصة وأن العملية التدريسية والتعليمية تتضمن معان مختلفة ومتباينة سواء من قبل الفئات العاملة داخل المدرسة مثل المدرسين أو التلاميذ أنفسهم، والتي يصعب دراستها بواسطة المتخصصين في مجال التعليم أو التربية أو من ينظرون من جانب واحد إلى دراسة المدرسة وعلاقتها بالمجتمع أو تحليلها من الخارج فقط. (عبد الله عبد الرحمن، 2001، ص81)

1 -"جورج ميد" والتفاعلية الرمزية:

يبدأ "ميد" بتحليل عملية الاتصال وصنفها إلى نوعين أساسيين: الاتصال الرمزي والاتصال غير الرمزي، وبالنسبة للنوع الأول يؤكد "ميد" بوضوح على استخدام الأفكار والمفاهيم، وبذلك تكون اللغة ذات أهمية بالغة بالنسبة لعملية الاتصال بين الناس في المواقف المختل، وذلك لأنهم بواسطتها يتمكنوا من:

✓ تنظيم انطباعاتهم وفهمهم للعالم الاجتماعي والطبيعي.

✓ نقل هذا الفهم للآخرين الذي يشاركونهم اللغة.

✓ تطبيق ما اكتسبوه من فهم ذهني على المواقف الجديدة.

وبذلك يذهب "جورج ميد" إلى أنه من خلال عملية الاتصال الرمزي تلك، التي تلازم الفرد منذ ميلاده وخلال مراحل نموه المختلفة، يتولد لدى الفرد مرتبطين بقوى المجتمع وأنماطه فإنهم يخلقون المجتمع كل يوم بواسطة أفعالهم الاجتماعية، وعليه فإن النظام نتاج فعال صنعه أعضاء المجتمع، ويشير ذلك المعنى ليس مفروضا عليهم وإنما هو موضوع خاضع للتفاوض والتداول بين الفاعلين الاجتماعيين. (فادية عمر الجولاني، بدون سنة، ص ص184-185)

2 -"هربرت بلومر":

حمل "بلومر" فكر "ميد" وقام بتقليده لمدة خمس وعشرين عاما في جامعة شيكاغو، ولمدة خمسة وعشرين عاما أخرى في جامعة كاليفورنيا في بيركلي، حيث درس فيها لحين تقاعده، وخلال فترة وجوده في شيكاغو انخرط "بلومر" في أنشطة متنوعة مثل اللعب الاحترافي لكرة القدم، وعمل كوسيط في خلافات العمل ومقابلة أعلام الرذيلة والإجرام مثل عصابة آل كابوني...

وتتمثل الاسهامات الأساسية لـ "بلومر" في المنظور التفاعلي الرمزي بعمله حول التفسير والمقدمات المنطقية الثلاث للتفاعلية الرمزية، والبناء والعملية والمنهجية. (رث والاس، ألسون وولف، 2011، ص 347-348)

يسجل لـ "بلومر" سعيه لتأكيد فاعليتها في عملية تحليل الأنساق الاجتماعية، متخذا من التفاعل الرمزي مدخله لتحليل تلك الأنساق، باعتبار التفاعل الرمزي السمة الخاصة والمميزة للتفاعل الذي يحدث بين الكائنات البشرية، وأن السمة الخاصة والمميزة للتفاعل تتطوي على ترجمة رموز وأحداث الأفراد، وأفعالهم المتبادلة.

وبذلك نمى "بلومر" فرضياته للتفاعلية الرمزية بالاستناد لأعمال "جورج ميد" وعليه جاءت فرضياته لتشير إلى:

- أن تهيئة الناس فرديا وجماعيا يتم بناء على المعاني الأساسية للموضوعات التي يتضمنها عالمهم، وبذلك فإن السلوك يرتكز على تلك المعاني الاجتماعية المتداولة بين الأفراد حول الأشياء، ولهذه الأشياء عند "بلومر" ثلاثة أنواع تتمثل في الأشياء المحسوسة (مثل الأشجار)، والأشياء الاجتماعية (مثل الدوار الاجتماعية التي يشغلها الأفراد)، ثم الأشياء المجرد (مثل المبادئ الأخلاقية).

- أن الترابطات بمثابة الوسط والعملية التي يتم خلالها تبادل الناس للإشارات المتداولة فيما بينهم، وتأويلهم لها.

- أن الكائن البشري كائن حي يعمل مع نفسه من خلال الدور الذي يشغله، ولذلك فإن الأفعال

الاجتماعية تبين من خلال العملية التي يتم فيها ملاحظة الفاعلين للمواقف التي تواجههم بناء على تأويلهم لها.

- وأن الأفعال المتداخلة والمعقدة قائمة على الاعتماد المتبادل، وأنها متضمنة في التنظيم،

ونقسيم العمل، وأن هذه الأفعال ذات طابع دينامي، ولذلك فإن الجماعات والمجتمعات في حالة التفاعل تتم بالدينامية، ويصف "بلومر" لذلك أن الفعل لا ينفصل عن خلفية المشاركين فيه.

3 -ارفنج جوفمان:

فيما كان اهتمام "جورج ميد" قائما على أساس الاتصال الرمزي -وما ينطوي عليه من أفكار

ومفاهيم- والذي يتم من خلال اللغة، وفيما تركز اهتمام "بلومر" على التأكيد على اتفاعل الرمزي القائم

على أساس المعاني الاجتماعية للأشياء، والمتداخلة بين الفاعلين، كان تركيز "ارفنج جوفمان" قد وجه

اهتمامه لتطوير مدخل التفاعلية الرمزية، لتحليل الأنساق الاجتماعية، مؤكدا على أن التفاعل الاجتماعي

وخاصة النمط المعياري والأخلاقي ما هو إلا وظيفة الانطباع الذهني الإداري الذي يتم في نطاق

المواجهة، وأن هذا التفاعل مقنن بواسطة السمات المرتبطة بالدور والمواقف، وأن مركزه أنواع معينة من

المعلومات، ولذلك اتخذ من التصورات الذهنية، ومصادر المعلومات لعملية التفاعل وذلك من المعلومات،

ولذلك اتخذ من التصورات الذهنية، ومصادر المعلومات لعملية التفاعل وذلك لأنه يرى أن المعلومات

تسهم في تعريف الموقف، وتوضيح توقعات الدور، كما أنه أكد على أن المواجهات الاجتماعية خلال

عملية التفاعل تحدث بصورة منتظمة في سياق نمط الفعل المنتظم.

وانجازات الأفراد لا ينفصل عن سلوك الدور، وبذلك فإن سلوك الفريق يتم بالرجوع للقوالب الاجتماعية المرتبطة بدور معين، ونظراً لأن تحليل "بولمر" للعمليات الاجتماعية قائم على مفهوم التبادل الاجتماعي. (فادية عمر الجولاني، بدون سنة، ص 186-187)

ثانياً - النظرية الظاهرية Phenomenology

هي نظرية فلسفية تنطلق من القول بأن المعرفة مبنية على الظواهر فقط، أي المظاهر والخبرة الحسية فقط وأن الأشياء ليس لها وجود مستقل، أو تقول بتعبير آخر إن الظاهرة هي وحدها الأشياء التي تستطيع التوصل إلى معرفتها وما عدا ذلك فهو إما غير موجود أو موجود، والعقل البشري قاصر عن إدراكه، ويمثل مذهب الظواهر مجموع الآراء التي ترى أن المعرفة الإنسانية قاصرة عن إدراكه، ويمثل مذهب الظواهر مجموع الآراء التي ترى أن المعرفة الإنسانية مقصورة على ظواهر الأشياء الماثلة أما الحواس فالمعرفة لا تتعدها -الخبرة الحسية-، وهكذا أنكر بعض أنصار هذا المذهب صحة الاستدلالات التي بها نبرهن على وجود أشياء تقع خارج الخبرة الحسية فبالنسبة لـ "ديفيد هيوم" لا يوجد شيء على الإطلاق وراء الظواهر الماثلة أمام الحواس، كذلك فعل "جون ستيوارت ميل" وسمى مذهبه بالمذهب الحسي، ويعتبر الفيلسوف "هوسرل" واضع علم الظواهر في القرن العشرين. (معن خليل عمر، 1997)

ثانياً - الجذور الفكرية للنظرية الظاهرية

ترتبط جذور علم الاجتماع الظاهراتي أساساً بالفلسفة الظاهراتية وبشكل خاص بعمل الفيلسوف "إدموند هوسرل Edmund Husserl" (1859-1939)، الذي كان أول من استخدم مصطلح الظاهراتية، عرف "هوسرل" الظاهراتية بأنها: "الاهتمام بتلك الأشياء التي يمكن أن تدرك مباشرة بواسطة حواس المرء، هذه هي النقطة الأساسية حول الظاهراتية، إنها تتكرر بأننا نستطيع أن نعرف عن الأشياء أكثر مما نشهده بالخبرة المباشرة عبر حواسنا، إن جميع معرفتنا تأتي مباشرة من تلك الظواهر الحسية وأي شيء آخر هو عبارة عن تأمل، ويجادل "هوسرل" أنه علينا تجنب حتى محاولة التأمل." (رث والاس، ألسون وولف،

ظهرت هذه النظرية كرد فعل للنظريات الاجتماعية التقليدية وكنتيجة منطقية للتحويلات الاجتماعية والفكرية والبنائية التي اجتاحت المجتمعات الغربية خلال الستينات من القرن الماضي، حيث شهدت هذه الفترة إحياء التراث الفلسفي للفينومينولوجية التقليدية وتعميق مفاهيم جديدة تلبي متطلبات الواقع الجديد من خلال نظرية اجتماعية تعطي فيها لحرية الفرد وأفعاله القصدية واللاقصدية مكانا بارزا، وتكون معبرة عن أفكار جيل الستينات في أوروبا وأمريكا واتجاهاته الفكرية نحو الفلسفة، كما أن النظرية الفينومينولوجية في فهمها للواقع الاجتماعي وتأكيدا على وجود فوارق كبيرة بين الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية إنما تعكس حقيقة اتجاها النقدي للنظرية الوضعية لعدم قدرتها على تحليل الواقع الاجتماعي بموضوعية.

(ياس خضر البياتي، 2002)

التحليل الفينومينولوجي للقضايا الاجتماعية

يمكن تحديد المقصود بالتحلي الفينومينولوجي بأنه وسيلة لاستخلاص ما نلاحظه في الواقع لفهم جوهر الأشياء وتحليلها وربطها بالصور الذهنية والعقلية للأفراد بطريقة علمية مدروسة، وهذا النوع من التحليل يعتبر من المداخل الحديثة في السوسيولوجيا، والتي لاقت انتشارا ملحوظا خلال العقود الأخيرة لتركيزها على دراسة نسق المعرفة وتحليل المعاني والأفكار والتصورات ودراسة أنماط التفاعل ونوعية المواقف وعمليات الشعور والإدراك عن طريق الاعتماد على خبرات الأفراد وقدراتهم المعرفية والحياتية وتصوراتهم وانطباعاتهم حول مختلف الظواهر الاجتماعية والمعرفية. (عبد الله محمد عبد الرحمن،

1998، ص)

وقد ركز التحليل الفينومينولوجي على أهمية تحليل المؤسسات بصورة واقعية، ويعتمد على المسموح والدراسات الميدانية، خاصة وأن الاعتماد على التصور النظري وقلة الاستعانة بالشواهد الامبريقية والتاريخية من شأنه أن يضعف الإطار العام التصوري الذي تنطلق منه تحليلات الباحثين ومعالجتهم

لل قضايا التربوية والمشكلات التعليمية والقضايا المرتبطة بها بصورة ملائمة، وفي نفس الوقت غياب استخدام الباحثين للمناهج والأدوات البحثية المتطورة قد يؤثر بصورة سلبية على صحة نتائج الدراسات التي تجري على المؤسسات التربوية وتقييمها لمستويات إنجازها وكفاءتها ووظيفتها البنائية في المجتمع الحيث، ويظهر المدخل الفينومينولوجي كأحد المداخل الحديثة والتي يستخدمها جميع المتخصصين في فروع علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية المختلفة. (عبد الله محمد عبد الرحمن، 1998، ص)

➤ مايكل يونغ

يعتبر العالم البريطاني "مايكل يونغ" من أهم المساهمين في تطور علم الاجتماع التربوية مستخدماً المنهج الفينومينولوجي (المعرفي)، إن تحليلات "يونغ" عن المعرفة وعلاقتها بالمؤسسات التربوية والصفوة الاجتماعية التي تسعى للسيطرة على كل مكونات القوة عن طريق امتلاكها لعناصر المعرفة الأعلى أو ذات الخصائص السامية، لم يقتصر على التحليل النظري لمكونات هذه العلاقات بقدر ما تطرق "يونغ" لمناقشة قضايا أخرى ترتبط بالمشكلات التعليمية في المؤسسات التربوية في بريطانيا، وخاصة عندما ناقش قضية المنهج الدراسي، والعلاقة بين المنهج والمعرفة، حيث اعتبر المدرسة كمعبر للمعرفة الثقافية وتأكيداً على أهمية دور علماء الاجتماع التربوية في دراستهم لأنماط هذه المعرفة ونوعية المناهج والمقررات الدراسية، ودراسة ليس فقط بمن ولماذا يدرس المنهج الدراسي في المدارس؟ بل علاوة على ذلك أكد على أن يسعى علماء الاجتماع التربوية للإجابة على تساؤلات مثل: من الذي يقرر طبيعة المناهج الدراسية كنوع من المعرفة؟ ولماذا تطرح بعض المناهج الدراسية لتحليل مكانة معرفية دون أخرى في المدارس؟. (حمدي علي أحمد، 2002، ص)

وهذا ما دعا "مايكل يونغ" إلى توجيه النقد لعلماء الاجتماع الذين نظروا إلى المناهج وما يتم تعليمه

داخل المدرسة على أنه لا يشكل أي مشكلة تربوية، ذلك الاتجاه الذي يعكس الاعتقاد الشائع في

موضوعية المعرفة المتضمنة في المناهج، وناد "يونغ" إلى اعتبار علم الاجتماع التربوية مجالاً للبحث لا

يتميز عن علم اجتماع المعرفة، واتجاه البحوث التربوية يجب أن يتمركز حول الكشف عن الأصول

الاجتماعية للمعرفة التربوية. (سهيلة الفتلاوي، أحمد هلال، 2005، ص ص 191-192)

إن منظورات التفاعلية الرمزية والظاهرانية بالكاد تكون أكثر اختلافاً لأنها تختبر التفاعل الإنساني

بتفصيل دقيق، إنها تناقش مثلاً كيف أن سلوك بائعة المتجر يصطدم بزبون صعب المراس وأن فهم

وإدراك المراد منه يعتمد على خبرات الفرد وتصوراتهِ وكذلك على العادات والوصفات الاجتماعية

المتقدمة، أو كيف يفهم المعلم والطفل (أو يفشلان في الفهم) بعضهما جملة بجملة، إن المفاهيم

المستخدمة من قبل تلك المنظورات السوسولوجية قصيرة المدى لا تصنف جوانب البناء الاجتماعي،

وبدلاً من ذلك فإنها تتألف من مجموعة مفردات لغوية مطلوبة لمناقشة أفعال معينة يقوم بها الناس. (رث

والاس، ألسون وولف، 2011، ص 35)